

الإسلام والفن والحياة

للاستاذ منصور جاب الله

الوقود من يقول له إن تقبيل زمام الجمل لا يعنى إلا تمجيد المعنى الذى يعنيه سفر المحمل إلى البقاع القدسية وأن التذليل القائم على دورات المحمل السبع لا يعنى إلا التمثل بالأشواط السبعة حول الكعبة المشرفة أو بالأشواط السبعة بين الصفا والمروة

وكنت أحب أن أرد على الشيخ ، وكانت النفس فى سورة جامعة ، ذلك أن إثارة ذلك الموضوع فى هاتيك الأيام لم يكن يقصد به وجه الله ، وإنما كان يراد به صرف الأذهان عن مجاهدة الأعداء

واليوم أرجو أن أستمح القارىء عذرا إذا تحدثت فى هذا الموضوع ، فلقد كثرت الحديث فى هذه الأيام حول ولاية علماء الدين فى الإسلام وتعرض الأزهر الشريف لمحنة سوف يخرج منها إن شاء الله منصورا مبعجلا من أهله ومن غير أهله

ولقد قدسنا الحديث بمحمل المحمل ، ولا يزيد أن نزيد أو نحمل الألفاظ أكثر من معانيها ؛ وإنما نقولها صريحة إن « المحمل » ليس من الدين ، ولم يكن ثمة « محمل » فى عهد رسول الله ولا فى عهد الخلفاء الراشدين ولا ملوك الأمويين ولا العباسيين ، وإنما ابتدع المحمل فى نهاية الدولة الأيوبية ، ليكون هودجا لشجرة الدر ، ثم جرى به العرف والتقليد من ذلك العصر ، فكانت قافلة تعبر القاهرة العزيزة إلى السويس ثم تجتاز صحراء سيناء ، والركب خلال ذلك يهطلون ويكبرون ، فتتجاوب الأصداء بكلمة الله بين تلك المهامه البيد والتنائف الفيع حتى يبلغ الركب البقاع القدسية التى ضمت بيت الله الحرام وقبر الرسول الأعظم عليه صلوات الله ومقابر الصحابة والتابعين عليهم رضوان من الله أكبر

فأى جلال هذا الجلال ، وأى جمال هذا الجمال !

أبعد قرابة ألف عام يطالع علينا من يزعم أن المحمل « بدعة » فى حين أن البدعة على ما فهمها الفقهاء « كل

ما زال القلم ينازعنى فى التعقيب على نبأ طالعتنه فى الصحف قبل أشهر ، وما برحت أطامن نقاره وأوده عن جماعه حتى غلبنى على أمرى فكان هذا المقال !

وقصارى هذا النبأ أن « حمل المحمل » نفق ، وليس فى هذا شئ ، فما كان نفوق حيوان ليسترعى الأذهان ، ولكن بعض الصحف أبرز هذا الخبر فى إطار مبالغة فى الاهتمام به ولفت النظر إليه . إذن فليس الأمر أمر حيوان نفق وصار جيفة من الجيف ، فلا بد أن للخبر وجها آخر يعادل هذا الوجوم المرسم على كثير من الوجوه التى طالما الخبر

إن الذين قرأوا نبأ نفوق حمل المحمل ، عرفوا من قبل أن « طلعة المحمل » قد ألفت منذ هذا العام ، وأن أهل القاهرة سوف يحرمون هذه « البدعة » التى جرت بها التقاليد منذ عهد « أم خليل المعتصمية » المشهورة فى التاريخ باسم شجرة الدر ، ومن ثم كان الحزن وكان الوجوم ، وكان التساؤل : أى خير فات الأمة من بقاء المحمل ؟ ومتى نهى الدين عن المحمل ؟ وهل من الخير أن تقحم الدين فى كل شأن من الشؤون ؟

وقبل عام وبمضى عام كانت الحركة محتومة بيننا وبين الطغاة المحتلين على ضفاف القناة ، وكنا نسمي « قوانا ونستنهنض » الهمم والمزائم ، وإذا بشيخ جليل القدر كبير المكاة ، يطالع علينا بمقال ضاف فى إحدى الصحف بأن تقبيل زمام حمل المحمل حرام ، وأن الدورات السبع لجمل المحمل لم ترد فى الكتاب ولا فى السنة ، وقرأنا هذا الكلام ونحن فى قتام الحركة وقبل أن يتجلى عن الملحمة غبارها ، نهد للشيخ

يكون الناس كلهم فلاسفة

فإذا رخم المؤذن صوته بالأذان وحلاه ، قلنا هذه بدعة ، وينبغي أن يكون الأذان خاليا من الطلاوة والحلاوة وأن يؤديه صاحبه بجملافة وكأنما يفجر قبلة أو يلقى حجرا ، وكأنما غاب عنا أن لحلاوة الصوت مدخلا للأذان ومعبرا إلى الإيمان . ولقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري يرتل القرآن بصوت حنان فأعجبه الصوت الندى وأثنى على صاحبه بقوله « كأنما أوتيت مزمارا من مزامير داود » وهن أبو موسى لهذا الشناء وقال « والله يا رسول الله لو كنت أعلم أنك تستمع إلى خبرته لك تحييرا » أى زاد في حلاوة الصوت وجمال الترتيل

فهذا خاتم المرسلين قد قدر الفن وشجع أهل الفن وجثنا من بعده ندعو إلى غير ما يدعو ، وصرنا زوى كل ذى رأى بالابتداع أو بالوثنية

ولقد انصرف كثير من الوعاظ عندنا إلى التنفير من كل فن وغاب عنهم أن الإسلام مجد الفنون ودعا إلى الأخذ بها ، وإنما نهى عن الشرك بالله ، ودعا إلى إقامة دعائم الدين ، وليس من الدين أن يقصر كثير من الشيوخ حديثهم حول الوسيلة والشفاعة ، والقول بأن الصلاة على النبي بعد الأذان بدعة وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة بدعة وهنا أقف قليلا لأرى في صيغة الصلاة على النبي بعد الأذان ضربا جميلا من فن النتم ، وليس في الأمر بدعة وإنما هو شئ طبعى ، وليس لدى الساعة مرجع تاريخى يسمه فى لأذكر اليقاعات الحقيقى لدخول هذه الصيغة المحببة على الآذان ، وإن كنت أستبعد أنها وقعت في العهد الايوبى كما ذكر بعض المؤرخين ، وإنما أرجح أنها جاءت لمهد عمر بن عبد العزيز الذى استبعد سباب أهل البيت بعد الأذان

شئ ليس له أصل في الدين « وليس المحمل بمندرج تحت هذه البدعة ، وإنما هو مظاهرة دينية فيها فن وفيها جمال ، ولقد بصرت بعينى مواكب المحمل ورايت الألوفا من المشاهدين تهمج عيونهم بالدمع ، وهم يودعون ركب المحمل ويقبلون الكسوة وهى فى طريقها إلى الكعبة أو إلى قبر الرسول . لقد رأيت الناس يذرفون الدمع المتهون شوقا إلى البقاع القدسة ويماهدون الله أن يزوروها إذا مد لهم فى الأجل . فإذا لم يكن للمحمل إلا هذه الفائدة ، لكفاه نفرا ، وهل بعد التشويق لزيارة البيت الحرام زيادة لمستزيد ؟ وإنى لأذكر الساعة أن ركب المحمل منع من السفر من مصر إلى الحجاز أحد عشر ماما ، ثم أذن له بالسفر عام ١٩٣٧ وتواكب الناس لرؤيته من كل فج حتى عمرت القاهرة واكتظت جنباتها ، وقيل إن عدد المشاهدين بلغ ألف ألف ، وأذاع المسئولون عن النظام يومئذ أنه رغم هذا الجمع الهائل لم تحدث سرقة واحدة ولا حادث نخل بالأداب . أبعد هذا يقال إن المحمل « بدعة » لأنه لم يكن فى عهد النبي ولا فى عهد الخلفاء الراشدين ا

لقد كان المحمل ضربا من « الفن » قضينا عليه بأيدينا ليعلم غير أهل الإسلام - بنغير حق - أن الإسلام عدو للفن والتقاليد الصالحة ، ولأننا صرنا إلى حال من الفوضى الدينية لا يرضى عنها عدو ولا نصير . ولسنا نعرف والله ماذا يضير الإسلام فى قواعده الخمس التى لا يأتها الباطل إذا بقيت التقاليد التى لا تمس الجوهر والتى فيها الجمال الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى « ولكم فيها جمال »

إن رجال الأديان الأخرى فهموا الدين على حقيقته الطبيعية ، فجمعوا منه فنا وتراويق وموسيقى تفرى الناس باعتناقه ونحن فى القرن العشرين نريد أن نجعل من الإسلام ديننا تجريديا لا يفهمه إلا العلاسفة ، وهيهات أن

أخرى ذلك الإيمان الذى لا يعرفه حق المعرفة إلا خاصة الخاصة ممن اصطفى الله ، ولسنا نطالب عامة الناس بمثل هذا النوع السامى من الإيمان ، فالناس يخاطبون على قدر عقولهم ، وقد سأل النبي مرة جارية أمجمية « أين الله ؟ » فأشارت إلى السماء فمدها الرسول الكريم مسلة

ولقد كان الخليفة المأمون رجلا فيلسوفا يؤمن بالله إيمانا مجردا ، بيد أنه رزى في أخريات أيامه بصحبة القاضى أحمد بن أبى دؤاد فزين له أن يجعل رعاياه كلهم على شاكلة أى من المعتزلة ، فأوقمهم فى النازلة الكبرى التى سودت تاريخه ولطخته ، ونمى بها محنة خلق القرآن ، ومات المأمون ، وبلغت المحنة أقصى حدتها فى عهد الخليفة المعتصم وكان رجلا فظلا لا يعرف من الدين إلا أولياته ، ووقع بين برائته الإمام العظيم أحمد بن حنبل ، وأبى أن يقول بخلق القرآن ، فلطمه على وجهه وأمر به فجلد حتى غشى عليه . ولما جاء بعده الخليفة الواثق خفت حدة المحنة ، حتى إذا تولى « التوكل على الله » أمر برفع المحنة وقال بالرجوع إلى الكتاب والسنة ؛ ولذا ذهب فى الناس قولهم « الخلفاء ثلاثة : أبو بكر فى حروب الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد المظالم ، والتوكل فى إحياء السنة »

ولم يكن الخليفة التوكل فى علم سلفه المأمون ولا فى فقهه ، بيد أنه أدرك من خلائق البشر ما لم يدركه المأمون ؛ ذلك أن الدين سجية وفطرة وليس حكرة لأحد من العالمين . وليس لمسلم وصاية على مسلم ما دامت قواعد الإسلام الخمس الأصلية مرعية الجانب ، وليس لإنسان أن يقحم نفسه فى دقائق الأمور وتفصيلاتها ، ولقد ذهب المهدي الذى يرى فيه المسلم بالإلحاد أو الزينغ لأنه خالف قول إمام من الأئمة أو تزبد أو ابتدع

وما دمتا نتحدث عن صلة الإسلام باليمن والحياة ، فلا علينا أن نعرض على رجل عظيم الشأن من علماء الدين

كذلك أبعدا الإسلام عن كل فن حين قلنا بهدم القبور والانصراف عن زيارة مقابر الأولياء ، وزعمنا أن كل أولئك « بدعة » بل هو ضرب من الوثنية ، فى حين أننا نقرأ فى السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم حين دفن وجيده إبراهيم سوى عليه بيده الشريفة ورش الماء وأعلم عليه بملامة وقال « إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تفرعن الحى »

ولما طاف عمر بن الخطاب بالكعبة فى أول خلافته استلم الحجر الأسود وقال « اللهم أبى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أبى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » وورد فى بعض المراجع أن ابن عباس شوهده يوما - وهو فى طريقه إلى الحج - راكبا ناقه يدور بها حول شجرة ، ولما قبل له فى ذلك أجاب بأنه رأى مرة ناقه الرسول عليه السلام تطوف بهذه الشجرة فأراد أن يتبرك بآثار ناقة الرسول

وفى القرآن الكريم ما يدل على التبرك بآثار الصالحين فى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى بأت بصيرا » « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا »

ونعنى فى القول بأنه فضلا عن التبرك بآثار الصالحين فإن فى إقامة هذه المقابر ضربا من الفن ، لأن الأضرحة تشيد على أعماط خاصة وزخرفة خاصة تأخذ العين وتستهوى القلب وتدفع النفس إلى التذكرة . والاستشهاد بالحديث الشريف « لا يشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى هذا » لا يفتى على الإطلاق زيارة مساجد الأولياء ؛ فكما أن المرء يشد رحاله لزيارة صديق أو قريب لا عليه أن يسافر ليصل الجمعة فى مسجد الإمام الحسين أو فى مسجد السيد البدوى مثلا

ويجرتنا هنا إلى الحديث عن الإيمان التجريدى مرة

يرون؛ فقدم أن أتباع الطرق الصوفية إن هم إلا حواة
 يروضون النعابين وبأكلون الحديد وبلعبون بالنار، وغاب
 عنهم أن سوء استعمال الشيء ليس دليلاً على فساده،
 وإنما الفساد أن يرمى المؤمن البريء بالكفر، وأن يكون
 راميهِ على غير حجة أو بينة

ونخلص من هذا الحديث إلى أن الإسلام ليس ديناً
 ودولة فحسب، كما يحلو لطائفة من جلة المؤمنين أن يقولوا،
 وإنما هو دين ودنيا، وعلم وفن، بل هو مرادف للحياة
 في ذاتها، الحياة في هذه الدار، وفي تلك الدار، وإن
 التزمتمين المنتظمين الذين يفهمون الإسلام على أنه تعاليم كتبها
 فقهاء طوَّهت الأجيال، هؤلاء لم يمد لهم مكان في دنيا
 الإسلام، ولا في دولة الإسلام، ولا في دين الإسلام

منصور جباب الله

ما زالت تعاليمه تحدث الفتنة وتجمل المسلمين يحبون فيها
 ويضمون، ونعني به شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فأكبر الظن
 أن الرجل كان يبنى خير الأمة، وإن شذ في بعض الأمر
 حتى بدعه طائفة من علماء عصره من سبعة عشر وجهاً،
 وحتى أنهم التقي السبكي بالزيغ من ثلاثة وجود، يقول
 إنه كان رجلاً عظيماً لا شك في ذلك. قال ما اعتقد، ولا
 أحسبني غالباً في القول إذا زعمت اليوم أن عظامه تضطرب
 في قبرها لما أحدثت تعاليمه التي تأولها المتأولون من الفتنة
 والفرقة؛ إذ قام من بعده الشوكاني وابن القيم الجوزية
 ولم يكن لهما علمه ولا فضله، فلجأ في الأمر وكفرا جماعة
 المسلمين. ثم تبع هذين محمد بن عبد الوهاب الذي بالغ في
 تكفير المسلمين ورفع حد السيف لمحاربة المسلمين بدعوى
 أنهم «كفار» وأسرف في هدم الأضرحة والقباب في
 نجد، ثم عدا أتباعه على الأرض المقدسة فهدموا أضرحة
 الصحابة الأجداد وأزالوا القباب ذات الأثر الفني الرائع
 وكادوا يأتون على مسجد الرسول الأكرم لولا صرخة

ارتفعت من ضمير العالم الإسلامي

نستطيع أن نقول إن هؤلاء الناس فهموا الدين فهماً
 مجرداً لا فن فيه، فهو عندهم مجرد ركوع وسجود، وزكاة
 وحج وصوم ومعاملات، وأن المسلم عندهم ينبغي له أن
 يكون أداة صماء تنفذ التعاليم المكتوبة دون تصرف ولا
 مرونة، ودون مجازاة لروح العصر، ودون أخذ لما يقتضيه
 علم الاجتماع وطبائع البشر، فإذا لم يفعل المسلم هذا فهو
 ملحد وأي ملحد!

ومن هنا أتبعوا الطرق الصوفية بالكفر في
 حين أن الطرق الصوفية كان لها فضل كبير على المسلمين
 في الحروب الصليبية وفي حروب الممّول وفي وقعة عين جالوت
 بالذات، فإن العزيز بن عبد السلام الذي نفر المصريين للقتال
 لم يكن إلا شيخ طريقته. على أن هؤلاء معذرون فما

بنك مصر



أسس شركاته الكبرى
 التي وظف بها خصائص
 البلاد واستنزل مراقبها
 فإذا بها الدعائم التي قام
 عليها نشاط التصنيع
 القومي في مصر وكانت
 السياج النيع للتخثر
 الاقتصادي منذ ٣٢ عاماً
 فدل على الكفاية المصرية
 وتفوق المصريين في
 مضار الحياة العملية